الباب الثالث

الصراع اليهودي مع الإسلام ودولة الخلافة

•• وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الصراع اليهودي مع الإسلام قديماً وحديثاً.

الفصل الثاني: انهيار الدولة العثمانية ودور اليهود في ذلك.

الفصل الثالث: تقسيم فلسطين وخطوات الصراع العربي.

الفصل الأول
الصراع اليهودي مع الإسلام قديماً وحديثاً

اليهود أصحاب الفتن والطباع الخبيثة، والنفوس الملتوية، والقلوب القاسية، والتمرد الملعون على الله ورسوله.

بهذه الصفات المرذولة، وهذه الطباع الكريهة، وهذه التعاليم الفاسدة، قابل اليهود الإسلام من أول يوم ظهر في الجزيرة العربية، محاولين وقف تقدمه والتشكيك فيه، ومناصرة الوثنيين عليه، بل ومحاربته والتصدي له بالسلاح والجيوش للقضاء عليه، رغم ما أبداه الإسلام نحوهم ونحو غيرهم من البشر، من تعاليم سمحة ومبادئ كريمة ومعاملة حسنة، ولكن أنَّى للطبائع اليهودية المهترئة أو المتعفنة أن تنصلح أو تسير في الطريق المستقيم.

* * *

المبحث الأول
حديث القرآن عن اليهود

● **اليهود في القرآن الكريم:**

لم يتكلَّم القرآن الكريم عن شعب من الشعوب، مثل ما تكلَّم عن الشعب اليهودي، فقد أعطى القرآن المسلمين والعالم فكرة واسعة عن حقيقة الطبع اليهودي الفتَّاك حتى يأخذوا حذرهم في التعامل معهم، ويكونون على أهبة الاستعداد لملاقاة كيدهم وخداعهم وصد هجماتهم وتدبيرهم، لهذا أبان من خصالهم الشيء الكثير، من ذلك:

١ ـ نقضهم العهود:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [البقرة: ٨٤، ٨٥]. وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

٢ ـ سوء أدبهم مع الله ومع الملائكة:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]، ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٧].

٣ ـ قتلهم الأنبياء والمرسلين:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠].

٤ ـ جحودهم للحق وكراهيتهم وحسدهم لغيرهم:

قال تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ

مِن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥].

٥ ـ اتباعهم للسَّحرة والمشعوذين:

قال تعالىٰ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

٦ ـ اكتسابهم لصفات القردة والخنازير:

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

٧ ـ إيمانهم بالأوثان والطاغوت، وكيدهم للدِّين:

قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥١، ٥٢].

● اليهود العدو الأول:

كان يفترض أن يهادن اليهود المسلمين أو يؤمنوا برسالتهم ويؤازروهم ويناصروهم؛ لأنَّهم يعرفون أن الإسلام حق، وأنَّ رسوله صادق في تبليغه عن الله. وصدق الله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]. ولكنهم ـ رغم ذلك ـ عادوا الإسلام من أول يوم بغياً وحسداً؛ لطبع لئيم وجبلة ملتوية وعنصرية بغيضة.

تروي صفية بنت حيي بن أخطب «اليهودي»، فقالت: «لما قدم رسول الله ﷺ قباء ـ قرية بني عمرو بن عوف ـ غدا إليها من اليهود أبي، وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين، فوالله ما رجعا إلَّا مغيب الشمس، فجاءانا فاترين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينا، فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما نظر إليَّ واحد منهما.

فسمعتُ عمي أبا ياسر يقول لأبي: أهو هو؟

قال: نعم، والله.

قال: نعرفه بنعته وصفته.

قال: نعم، والله.

قال: فماذا في نفسك منه؟

قال: عداوته والله ما بقيتُ.

فقال له أخوه أبو ياسر: يابن أمي، أطعني في هٰذا الأمر واعصني فيما شئت بعده لا تهلك.

قال: لا والله، لا أطيعك أبداً.

واستحوذ عليه الشيطان واتبعه قومه على رأيه، وقد شرب عداوة النبي ﷺ وأصحابه، ولم ينزل على ذلك ـ لعنه الله ـ حتى قُتِلَ صبراً يوم مقاتلة بني قريظة[1].

ورغم هٰذه العداوة والإصرار على المقاومة والعناد، لَمَّا نزل رسول الله ﷺ المدينة، لم يُكره أحداً على الإسلام أو يعامله معاملة سيئة، وعقد مع اليهود في المدينة معاهدة تؤكد النُّصرة والتسامح والحرية والتعايش الكريم لكلا الطرفين على قدم المساواة.

● **نقض العهود وتطور العداوة:**

ما إن استقرَّ المقام بالمسلمين في المدينة وبدأ الإسلام في الانتشار، حتى ازداد الحقد اليهودي على المسلمين، وبدأ الكيد العملي والتحرش الفعلي بالمسلمين، فعمل اليهود عيوناً للمشركين وطليعة لهم، ثم اشتركوا معهم في حرب المسلمين ونقضوا العهود والمواثيق بغير جريرة أو أسباب إلَّا حبّ القضاء على الإسلام والمسلمين، ثم انفردوا بحرب المسلمين في وقائع عدَّة، في بني قينقاع وبني النضير، وبني قريظة، وخيبر، ومارس اليهود لعبتهم المفضلة في العصيان والتآمر والتمرد التي صاحبتهم على مدار التاريخ، فدارت عليهم الدائرة وصدق وعد الله فيهم: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]، وقد بيَّنت سورة الإسراء ذلك، وأكَّدت أن الإفساد اليهودي سيقابل بقمع عادل يرد الأمر إلى نصابه وتدور الدائرة عليهم في ذلك، وقد

(١) البداية والنهاية، لابن كثير (٢/ ٢٩٨).

كان! وخرج اليهود من جزيرة العرب وتفرَّقُوا كما كانوا قبل ذلك.

ولا شك أن ذلك لم يزد النفس اليهودية إلَّا حقداً وتقوقعاً، حقداً على الشعوب والأخلاق والدين، وتقوقعاً على النفس وانغلاقاً على العنصر والجنس والْمِلَّة.

كل هـٰذا دفعهم إلى اتِّباع أساليب معينة؛ قصد التنفيس عما هو مكنون في الصدور، ومركوز في الطباع والأفهام والعقول، وما محاولة سيطرتهم على الأموال والبنوك، واستيلائهم على الإعلام والسينما، وإثارتهم للحروب المدمِّرَة إلَّا تعزيزٌ لهـٰذه الأفكار.

* * *

المبحث الثاني
ظهور اليهود حديثاً على أرض فلسطين وموقف الدولة العثمانية منهم

■ **ظهور اليهود حديثاً على أرض فلسطين:**

لم يكن لليهود وجود مستقر على أرض فلسطين، ولو رجعنا إلى الوراء قليلاً، لوجدنا أن الاحتلال الصليبي لفلسطين قد أنهى الوجود اليهودي فيها، حتى إنَّه في عام (١١٧٠م) لم يكن يسكن في فلسطين من اليهود سوى ثمانية يهود!! وعندما عاد الحكم الإسلامي إليها، سمح لليهود بالقدوم، وعندما غزا نابليون فلسطين (١٧٩٩م)، كان فيها ٥٠٠٠ يهودي، وفي القرن التاسع عشر ـ وفي آخره بالذات ـ بدأت تظهر الاهتمامات اليهودية بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين بشكل أوسع، حيث بلغ عدد اليهود عام ١٨٥٦م (١٠٦٠٠) يهودي. أمَّا في عام ١٨٨٠م فقد بلغ حوالي ٢٣ ألفاً»[١].

■ **موقف الدولة العثمانية من اليهود:**

وكان موقف الدولة العثمانية من هجرة اليهود في بادئ الأمر، متساهلاً إلى حدٍّ ما؛ لقناعة المسؤولين أن هجرتهم لا تشكل خطراً على فلسطين، ومع تزايد الهجرة، تنبَّه المسؤولون إلى الخطر، فأخذوا يقاومون الهجرة اليهودية. فمنع السلطان العثماني عام ١٨٧٦م السماح لليهود بالهجرة وشراء الأراضي الفلسطينية. وفي عام ١٨٩٦م عرض هرتزل اليهودي على السلطان عبد الحميد عن طريق زميله ـ نيولنسكي ـ بيع مساحة واسعة من أرض فلسطين قريبة من بحيرة طبريا بثمن مرتفع (عشرين مليون ليرة تركية). فأجابه السلطان عبد الحميد: أنا لا أقدر أن أبيع ولو قدماً واحداً من البلاد؛ لأنَّها ليست لي، بل لشعبي... ثم قال: ليحتفظ اليهود

(١) انظر: «موقف الدولة العثمانية من الحركة اليهودية»، لعلي حلاق، ص ٨٢، ٨٤، ط. بيروت ـ الدار الجامعية.

ببلاييهم، فإذا قسمت الامبراطورية، فقد يحصل اليهود على فلسطين دون مقابل، إنَّما لن تقسم إلَّا على جثتنا، ولن أقبل بتشريحنا لأي غرض كان».

ولقد حاول اليهود بعد ذلك، رشوة السلطان بمقدار خمسة ملايين ليرة ذهبية على يد «هرتزل»، وكان هذا التصرف سبباً لطرده من قصر السلطان، وتكررت محاولات هرتزل في إيصاله بالمسؤولين العثمانيين مع تقديم عروض سخيَّة، لكنه لم يجد آذاناً صاغية، وكان من بين هذه العروض السخيَّة على السلطان عبد الحميد:

- إنشاء أسطول عثماني بحري.
- مساعدة السلطان في سياسته الأوروبية.
- إنشاء جامعة عثمانية في القدس تغني عن الذهاب لأوروبا.
- المساعدة في المشروعات العمرانية.
- تسديد ديون الدولة العثمانية.
- عقد قرض مالي يكفي لتنفيذ المشاريع المقررة.
- دفع إتاوة سنوية تساعد الدولة على إصلاح اقتصادها المنهار.

كل هذا؛ من أجل أن يجدوا في فلسطين أرضاً يسكنون فيها تحت الرعاية العثمانية، لكن رفض السلطان عبد الحميد، كان حاسماً؛ لعلمه بنيَّة اليهود وطبيعتهم.

ويذكر السلطان عبد الحميد في مذكراته، قوله: «واجتمع يهود العالم وسعوا عن طريق المحافل الماسونية بغية الرجوع إلى ما يسمى بالأرض الموعودة، وجاؤوا إليَّ بعد فترة وطلبوا مني أرضاً لتوطين اليهود في فلسطين مقابل أموال طائفة وبالطبع رفضتُ»[1].

■ رجولة وموقف عظيم... ولكن:

الحقيقة، أن الإنسان المتأمّل في أمثال هذه المواقف، يجد نفسه مضطراً إلى

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد، ص ٦٥، ط. دار الأنصار.

التساؤل عن أشياء مهمَّة، منها:

١ ـ هل تنفع المواقف البطولية هٰذه، بدون استعداد بشري ونفسي يستطيع دفع الشرّ والتغلب على الصعاب؟ فإذا كان هناك قائد شجاع، فلا بد أن يكون عنده جيش مدرَّب وعتاد فاعل وخطة حكيمة حتى يستطيع كسب معرفة معينة، وإلَّا فماذا يفعل القائد الشجاع بدون ذلك؟!

والسلطان عبد الحميد ـ وإن دفعه إلى هٰذا الموقف الذي وقفه من هجرة اليهود غير محمودة على أرض الإسلام والمسلمين، ونية حسنة ومعرفة ثاقبة بغرض اليهود وتدبيرهم اللئيم ـ إلَّا أنَّه كان يلزمه أرضية قويَّة يقف عليها، وشعب ناهض يؤيده، وحاشية مخلصة تسدده وتنصح له، وعين ساهرة، وجند شداد لحمايته وحفظ الدولة من الانهيار، وكل ذلك لم يكن متوافراً ـ للأسف ـ عند السلطان عبد الحميد. وبهٰذا كانت بطولته كرتونية استطاع اليهود أن يلتفوا حولها وينفذوا أغراضهم، ثم يختموا تدبيرهم ومكرهم في نهاية المطاف بالقضاء عليه وتفتيت الدولة والظفر بفلسطين، والسلطان، كالأسد الذليل المتقوقع في منفاه تملؤه الحسرة ويعلوه الندم والمهانة.

٢ ـ هل ينفع حُسْن النيات وسلامة الطويَّة؟ وهل يجدي عمق الإخلاص بدون أخذ الحذر ومعرفة الأعداء، وعدم التدرب على مقارعة الخطوب، في مواجهة المواقف الصعبة والتغلب عليها أمام مثل هٰذه الحوادث والكوارث المدبرة من دول عظمى وقوى خارجية تعمل ليل نهار على مباعدة الهوَّة بين الدولة وبين الإصلاح وبينها وبين أهدافها، بل بينها وبين الانحدار والوقوع فريسة في قبضة الأعداء؟!

٣ ـ وهل تنفع صحوة أو يقظة، بدون جهد وعمل متواصل دؤوب ومناهج واضحة؛ للوصول إلى الأهداف العظام؟!

ولهٰذا يقول الأستاذ البنا ـ رحمه الله ـ رغم ما قام به من دعوة ويقظة:

«إنَّ كل ما أقوم به، هو إحداث يقظة، وما لم تدعم هٰذه اليقظة بمناهج واضحة، يكون ما قمتُ به كالشعاع التائه في الصحراء، لا حرارة فيه

ولا ضوء»[١].

■ **أسباب كان يجب أن تزول:**

لقد كان الفساد ينخر في جسد الدولة العثمانية، في جوانبها المختلفة، وذلك أفقدها جزءاً كبيراً من مصداقيتها الإسلامية، وهمش هويتها، وأفقدها حماسها ورجولتها الوطنية والإسلامية، ونفَّر المخلصين منها، وجذب إليها عصابات النفاق وأصحاب المصالح، ولفتها عن جلائل الأعمال، وشغل الأمة بما لا ينفع، بل بما يضرّ.

يذكر إحسان النمر، أن الدولة العثمانية في أواخر عهدها، سمحت بفتح الحانات ومواخير البغاء العلني، مما لم يكن للبلاد عهد به، فانتشر الفساد في كل مكان، واعتاد كثير من الشباب السُّكْر والتردد على مواخير البغاء، وعمَّت المفاسد والشرور؛ كالقمار، وتعاطي المخدرات... وغيرها. وفي فلسطين، في يافا وغيرها، أقبل العديد من الناس على المفاسد، فكان ذلك من أهم عوامل بيع الأراضي والأملاك لليهود، وكانت هذه المفاسد سبباً في كثير من الجرائم، وأصبح ما يحدث في مواخير وحانات يافا، حيث يتركز اليهود، حديث الناس من كثرة ما يرتكب فيها من موبقات[٢].

ويؤكد حسان حلاق في كتابه «موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية»، أنَّه قد كثر الفساد في فلسطين، وعمّ التعدِّي وساءت الفوضى، وضعفت هيبة الحكومة والإدارة، وبدأ الناس باحتقار الحكام، وجهلوا معنى الحرية، فكان الرجل ينهب مال غيره ما دام قادراً على ذلك، ويستبدّ بالضعيف، وإذا عنف أو زجر قال: حرية، شجاعة... إلخ».

* * *

(١) مجلة المجتمع، العدد (١١٥)، ٢٩ أغسطس ١٩٧٢م.

(٢) انظر: كتاب «قضية فلسطين ودورها البلدي»، ص ٨١. و«التيار الإسلامي في فلسطين»، ص ٥٩، ٦٠.

الفصل الثاني
انهيار الدولة العثمانية ودور اليهود في ذلك

المبحث الأول
أسباب انهيار الدولة العثمانية

بعض الناس يعطون الدول أعماراً كأعمار المخلوقات، ويقولون: إنَّ الدول تشيخ وتهرم وتموت بفعل مرور الزمن، وهٰذا - إن صحَّ في دول معينة فلن يصح في الدول الإسلامية؛ ذلك لأنَّ تلك الدول التي تشيخ وتهرم، يكون دافعها مؤقتاً وأرضياً وليس مرتبطاً بعقيدة دامغة كأن يكون حبّ السيادة أو التملّك أو التفوق... إلخ.

ولكن الدولة الإسلامية، دوافعها مفروضة من قِبَل عقيدتها وتعاليمها، ومتعلقة بدنياها وأخرىٰ بعدها، وبالثواب والعقاب عند ربها، وبدعوتها التي يجب أن تود البشرية وأن تربي لذلك الجيل القادر علىٰ ذلك، فإنَّ عمر الدولة يتجدد بتجدد الأجيال، يتجدد في كل جيل؛ لأنَّ التعاليم باقية وتمثل عقيدة لا يمكن التخلي عنها أو التهاون فيها، بل تمثل هويتها وشخصيتها، وليست شيئاً أرضياً ممكن التكاسل عنه أو التواكل فيه. ولهٰذا فالدولة الإسلامية إذا تخلَّت عن تلك التعاليم الدامغة، تكون قد تخلَّت عن كيانها كدولة إسلامية، ويقع الانحطاط وتُصاب بالشيخوخة، ولكن ليست كدولة إسلامية، وإنَّما كشيء آخر ليس له علاقة بتلك الدولة الإسلامية؛ لأنَّها انتهت بترك الإسلام كقوة، ومنهاج، وتعاليم، وتربية.

وهٰذا هو سرّ تأخّر كل دولة في العصر الحديث، تدَّعي الإسلام، وهي في الحقيقة ليست منفِّذَة له أو آخذة بتعاليمه، ولو ثبتت ونفذت منهجها؛ لكان لها شأن آخر غير ما هي فيه الآن، وهٰذا هو ما جرىٰ علىٰ الدولة العثمانية؛ إذ استيقظ العالم الإسلامي سنة ١٩١٨م علىٰ أكبر فاجعة نزلت به، وهي انهيار دولة الخلافة، وأخذ

يمسح عينيه ويفتح أذنيه وهو غير مصدق ما يرىٰ ويسمع ويتساءل:

أصحيح أنَّ دولة الخلافة الإسلامية التي كانت درع المسلمين الواقي، ورمز العظمة والشأن، قد زالت من الوجود؟

أصحيح أنَّه لم يبقَ للمسلمين بلد مستقل يعتزون به؟!

إنَّها والله لأكبر نائبة، وأعظم داهية.

وفي الوقت نفسه، استيقظ العالم الصليبي علىٰ ألذ حلم حلموا به، وأعظم أمنية تمنوها، وبذلوا في سبيلها كل مرتخص وغال، أجيالاً طولاً، وإذ بهم اليوم يرثون بلاد المسلمين ويقسمونها تركة ما خلَّفها لهم أب ولا أم، وما دفعوا لها ثمناً أو بذلوا في سبيل ذلك جهداً، وفي هٰذا يقول شوقي ـ رحمه الله ـ مستغرباً:

الهند وَالِهَةٌ ومِصْر حَزِينَة تبكي عَلَيك بمدمع سحَّاح

والشَّامُ تسألُ والعِرَاقُ وفَارِس أمَحَا من الأرضِ الخِلافَة ماحِ؟!

ولم يخف الصليبيون علىٰ لسان قادتهم هٰذه الفرحة التي غمرتهم حتىٰ جعلتهم لا يتوازنون، فقال الجنرال اللنبي ـ قائد الحملة الإنجليزية ـ حين دخل القدس: «**الآن انتهت الحروب الصليبية**». ووقف الجنرال غور ـ القائد الفرنسي ـ علىٰ قبر صلاح الدين الأيوبي في دمشق، وقال: «**ها قد عدنا يا صلاح الدين**».

والحقيقة، أنَّ الدولة العثمانية، بما أصابها من علل استعصت علىٰ كثير من غير المؤهلين للقيادة أو تدبير الأمور، كان يفترض أن يعلن وفاتها من زمن؛ حيث كانت تنتظر الانهيار بين لحظة وأخرىٰ، **وقد قدّر كثير من الباحثين أسباب هذا الانهيار إلى عوامل عدَّة، منها ما يلي:**

١ ـ زواج السلاطين بالأجنبيات، وتسلّط هٰؤلاء الأجنبيات علىٰ عواطف أزواجهن وتصرفهن في سياسة البلاد حسب ما يوافق بلادهن الأصلية، وتحكمهنَّ في مقدرات الدولة.

٢ ـ تعدد الزوجات والمحظيات اللواتي كان الأجانب يقدمونهن هدايا للسلاطين، وكذلك لرجالات الدولة وقادتها، وكان طبيعي أن تكون تصريف الأمور بأيدي

هـؤلاء.

٣ ـ تدخل نساء القصر في رفعة الخدم والعملاء، حتىٰ بلغ كثير منهم منصب الوزارة ما داموا سيكونون في خدمتهن.

٤ ـ تولي العرش ولاة ليست لهم دربة في الحكم أو في أمور الحياة، فيصيرون لعبة في أيدي غيرهم، أو تركهم السلطة في يد من لا يحسنها، أو في يد من يدبّر المؤامرات ضد الدولة.

٥ ـ تبذير الملوك حتىٰ بلغت نفقات القصور الملكية في بعض الأحيان، ثلث واردات الدولة.

٦ ـ خيانة الوزراء؛ إذ إن كثيراً من الأجانب المسيحيين كانوا يتظاهرون بالإسلام ويدخلون في خدمة السلطان ويرتقون بالدسائس والتجسس؛ حتىٰ يصلوا إلىٰ المناصب القيادية.

٧ ـ غرق السلطان والأمراء والقادة في الملذات والنساء والترف، وتركهم تصريف الأمور.

٨ ـ التلاعب بالقانون، وبالأحكام الإسلامية، وإدخال المباحات الدنيوية وجعلها مادة للإفتاء الشرعي؛ إلهاءً للأمَّة، وتولية الجهَّال أمور الفتوىٰ، فوصموا الدين بطبعهم، وسحبوا عليه جهلهم. مثال ذلك: أن أحد المثقفين أنشأ مطبعة في استانبول فوجد معارضة من قبل علماء الدين، فلجأ إلىٰ السلطان وإلىٰ حاشيته يطلب إليهم أن يقنعوا هؤلاء الجهال بفائدة المطابع، فأمر السلطان شيخ الإسلام بأن يفت بأن المطبعة ليست رجساً من عمل الشيطان، فأفتىٰ شيخ الإسلام بجواز إنشاء مطبعة شريطة ألا تطبع القرآن الكريم، ولا كتب الفقه والتفسير والحديث، وقد أنشأت أول مطبعة في استانبول سنة ١٧١٢م، أي بعد أن كان قد مضىٰ علىٰ اختراع المطبعة ما يزيد علىٰ قرنين ونصف، وبعد إنشاء فرنسا المطبعة الوطنية بنحو قرنين.

هـٰذه بعض الأسباب التي قضت علىٰ الدولة العثمانية وأنزلتها من شامخ عزها

إلى حضيض المذلَّة والهوان.

٩ - سياسة التتريك التي فرقت بين الأمة وعدَّدت الولاءات وأحيت الفكرة الطورانية، ولهذا فقد حاولوا القضاء على اللغة العربية، وقالوا: إنَّ العربَ هم بلية، وأن الحصان التركي خير من ألف عربي، وهذا قد تسبب في كراهية الشعوب العربية لهم، وتشتت الأمة وتمزق هويتها الحقيقية.

١٠ - المحافل الماسونية، التي تغلغلت في تركيا، وكانت الذراع السرِّي للاتحاد والترقي والحزب، الذي قام بالثورة ضد الخلافة الإسلامية، وأطاح بها، لصالح اليهود.

١١ - استبدال الثقافة الإسلامية في التعليم، بالثقافة الغربية التي كانت تأخذ القشور من الحضارة الأوروبية، مثل: الفلسفات والنزعات والصرعات، ولا تستفيد من التكنولوجيا، وانتشار مدارس التبشير التابعة للبلاد الأوروبية التي أفسدت كثيراً من الشباب والشابات بالتقليد الأعمى والانسلاخ من أخلاقيات الأمة ومحاربتها، بل محاربة الإسلام نفسه في الإعلام وفي التعليم.

● **الفساد يبطل بطولة السلطان:**

هذا الموقف المشرِّف من السلطان عبد الحميد، في منع اليهود من تحقيق أطماعهم والهجرة إلى فلسطين، لم يستطع - في الحقيقة - منع اليهود فعلياً من الهجرة أو تحقيق أطماعهم؛ لأسباب كثيرة، أهمها:

١ - مداخلات السفراء الأجانب في الأستانة، والقناصل في القدس وبيروت، الذين كان لهم نفوذ في الدولة وامتيازات، وقد أعاقت احتجاجاتهم تنفيذ قيود الهجرة ضد اليهود.

٢ - فساد الجهات الإدارية في متصرفية القدس وولاية بيروت، جعل هذا الجهاز يقبل الرِّشَا والهدايا التي ردَّها السلطان ويتحايل على القانون ويسهل دخول اليهود والإقامة في فلسطين، وكان الفساد كبيراً بحيث كان يسمى موظفي السلطة بـ «حزب البقشيش».

٣ ـ المحاولات اليهودية المستمرة للتخلص من قيود الهجرة؛ كالتجنيس بالجنسية البريطانية أو الأمريكية أو الروسية، أو بالنزول في مدائن أخرىٰ علىٰ الشاطئ ثم التسلسل براً إلىٰ فلسطين[1].

وهكذا زاد عدد اليهود أيام حكم السلطان عبد الحميد، ولم ينقص أو يتوقف، فهاجر في الفترة من عام ١٨٨١ إلىٰ عام ١٩٠٠م ما مجموعه ٢٥ ألف يهودي؛ وذلك كله كان سببه الفساد الإداري والخلقي، والانحدار في مواجهة قوة قادرة حازمة متربصة تستعين بالأعداء وبكل ممكن، في سبيل تحقيق أهدافها.

* * *

(١) عبد العزيز عوض، مقدمة في تاريخ فلسطين الحديث، ص ٦٢. والتيار الإسلامي في فلسطين، ص ٥١.

المبحث الثاني
خطوات الكارثة
ودور اليهود والاستعمار في ذلك

ترجع محاولات الصهيونية إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، إلى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، عندما نبتت القومية الصهيونية في أوروبا والولايات المتحدة، وتجمع لدى اليهود من الأموال هناك ما يمكنهم من تمويل الحركة، مستعينين في ذلك بالصداقات الكثيرة التي أنشؤوها في الغرب مع الساسة وأهل القرار.

وفي أيام السلطان عبد الحميد، بدؤوا التسلل إلى فلسطين، وعندما رفض السلطان عبد الحميد السماح لهم، اتجهوا إلى انجلترا، وانتفعوا بتحالف نفر من العرب مع بريطانيا ضد الأتراك في الحرب العالمية الأولى، مؤملين أن يعاونهم الحلفاء في بناء دولة عربية على أنقاض الدولة العثمانية.

وفي نفس الوقت، كانت اليهود تفعل نفس الشيء، مع اختلاف شاسع في الخط الفكري والتوجه والأساليب.

وفعلاً هُزِمَت الدولة العثمانية، ولم يكسب العرب شيئاً، وكسب اليهود كل شيء؛ لأنَّ الحلفاء في هذه الفترة كانوا يمنون العرب بأوهام، ويعطون اليهود الحقائق.

وأصدر وزير خارجية بريطانيا اللورد بلفور سنة ١٩١٧م، تصريحه المشهور بموافقة بريطانيا على قيام وطن يهودي في فلسطين، وقد أعطى هذا الوعد مسوغاً قوياً لليهود لمضاعفة الهجرة.

● **التقاء المصالح الاستعمارية:**

التقت المصالح الاستعمارية الأوروبية في انتزاع فلسطين من الوطن العربي مع المصالح الصهيونية بإقامة وطن قومي لليهود، ولو اختار زعماء الحركة الصهيونية مكاناً غير فلسطين، لما نالوا التأييد الذي حصلوا عليه، ومازالوا، من الدول

الاستعمارية، بل إن قادة أوروبا هم الذين عرضوا على اليهود إقامة وطن لهم في فلسطين، قبل أن تطرح الحركة الصهيونية الفكرة بسنوات طويلة، وعلى الأخص من جانب فرنسا وبريطانيا.

● **وعد نابليون لليهود:**

جاءت حملة نابليون على مصر وفلسطين، نتيجة من نتائج التنافس الاستعماري الأوروبي، وكان نابليون أول زعيم أوروبي يعرض على اليهود إقامة وطن لهم في فلسطين إذا ما ساعدوه في حملته على مصر وفلسطين، حيث طلب من اليهود الفرنسيين أن يعقدوا أول مجمع لحكمائهم في «سان هدريان» في فرنسا سنة ١٧٩٩م لكي يقرروا إنشاء دولة يهودية تصبح تابعة للنفوذ الفرنسي؛ من أجل السيطرة على الطريق الاستراتيجي لتجارة الشرق مع الغرب، وطمعاً في تحطيم النفوذ البريطاني في الشرق، إلا أن العرض النابليوني لليهود لم ينجح، بسبب فشل حملة نابليون[1].

وبهذا يظهر عمق العداء الأوروبي لبلاد المسلمين، ويظهر كذلك مقدار ضياع الأمة المسلمة حتى أنها تباع ديارها وتُوهب ولا رأي لها ولا حراك، كما يظهر عمالة اليهود واستعدادهم للتعاون مع الأجنبي ضد المسلمين.

● **المكر البريطاني ونقص الوعي العربي:**

ما كادت بريطانيا تحس أن الدولة العثمانية قد ضعفت، حتى تهيَّأت بمعاونة أوروبا للقضاء عليها، واعتمدت في ذلك على أمرين:

الأول: فساد الدولة وغفلتها.

الثاني: قلَّة الوعي العربي، وسلامة طويته.

وبدأت بريطانيا تخايل العرب وتمنِّي المسلمين بوهم بعيد، بدل واقع معاش، تمنيهم بخلافة عربية، بدل خلافة عثمانية قائمة.

واتصل الإنجليز بالشريف حسين - أمير مكة - سنة ١٩١٤م، ويعرف الإنجليز

(١) مدخل إلى القضية الفلسطينية، ص ١٦٣، ط. دار البشير - عمان.

طموحه السياسي، وحبه للاستقلال عن الدولة العثمانية، بغرض استمالته وكسب العرب إلى جانبهم في حرب الدولة العثمانية، وصاروا يلوِّحُونَ له بميل بريطانيا ورغبتها في تأييد إعادة الخلافة الإسلامية إلى عربي من الدوحة النبوية - يعنون بذلك «الشريف حسين» - وكانت بريطانيا تقصد تحريض العرب ضد الأتراك العثمانيين، والحيلولة دون اجتماع المسلمين ضدها في حربها ضد الدولة العثمانية، وفعلاً استطاعت عمل هذه الوقيعة، وقد تمرَّد الشريف حسين، على الدولة العثمانية، ولم يعلن الجهاد على بريطانيا؛ متذرعاً بحجج واهية.

واتصل بجمعية «العربية الفتاة»، واتصلوا به؛ للقيام بثورة ضد دولة الخلافة في سوريا والعراق، وبدؤوا يثيرون القلاقل ضد الدولة، ووضعوا خطة عمل تتضمن شروطاً وكيفيات التعاون مع بريطانيا ضد دولة الخلافة - ضد دولتهم - وإعلان الثورة ضد العثمانيين، وقد عرف هذا بـ «بروتوكول دمشق». وقد تولَّى الشريف حسين تنفيذ ذلك مع المعتمد البريطاني في القاهرة، وقد التزم الإنجليز شفهياً بعبارات فضفاضة بالاستقلال العربي، وتمخضت الاتفاقات عن تفاهم عربي بريطاني يعلن بموجبه الثورة على تركيا وتصنف كل بموجبه في عداد أعداء الإسلام، وتلتزم بريطانيا بإعلان الخلافة والاعتراف بدولة عربية.

• اتفاقية سايكس بيكو عام ١٩١٦م:

بعد أن اطمأنت بريطانيا إلى إحداث فتنة بين العرب وبين دولة الخلافة، واطمأنت كذلك إلى الثورة على العثمانيين وشق الصف العربي، واستحالة قيادته إلى جانبها، وتأكدت من خداع العرب وتصدقهم لوعد بريطانيا بقيام دولة خلافة عربية تكون مستقلة يحكمها خليفة شريف - كما يقولون - اتجهت إلى تقسيم التركة العثمانية وتوزيع بلاد العرب وليس بلاد الأتراك.

وهذا يعني أنَّ الأغرار الذين عقدوا صفقة مع بريطانيا من وراء ظهر دولة الخلافة هي التي قسمت بلادهم واحتلت لعدة دول، وعقدت بريطانيا لذلك اتفاقية «سايكس بيكو» وذلك بين وزير خارجية بريطانيا «سايكس»، ووزير خارجية فرنسا «بيكو» سنة ١٩١٦م، تمخَّضت عن اتفاق حصلت بموجبه فرنسا على أجزاء من

سوريا، وجنوب الأناضول، وعلى منطقة الموصل في العراق، ولونت على الخريطة باللون الأزرق، وحصلت بريطانيا على أراضي جنوب سوريا إلى العراق شاملة بغداد والبصرة والمناطق الواقعة بين الخليج العربي والأراضي الممنوحة لفرنسا وميناء عكا وحيفا باللون الأحمر، وأمَّا فلسطين فقد لونت باللون البني، واتُّفِقَ على أن تكون دولية، وبذلك تمت المؤامرة، والمخدوعون لا عزاء لهم!

* * *

المبحث الثالث
خديعة العرب
وما ترتب عليها من نتائج

● **كيف مرَّت الخديعة:**

قد يتعجب الإنسان ويتساءل: كيف مرَّت الخديعة؟

وكيف استساغها العقل العربي والإسلامي؟

وكيف خدع المثقفون والعلماء والساسة بهذه السهولة واليسر، رغم الرموز التي كان لها من المكانة بين الناس الشيء الكثير، من أمثال: الشيخ محمد رشيد رضا، والشيخ محب الدين الخطيب، والشيخ كامل القصاب، والحاج أمين الحسيني؛ الذي قام بدور منهم في حركة التطوع ضد العثمانيين، وكان يجوب البلاد وينظم المتطوعين حتى وصل عددهم إلى عدة آلاف، وكذلك الشيخ سعيد الكرمي «مفتي طولكرم»، والشيخ أحمد عارف «مفتي غزة»، والشيخ سعد الدين الخطيب[1]؟!

وهذا، إن دلَّ، فإنَّما يدلُّ على غرة وعدم دربة في الأمور السياسية؛ إذ لا يستطيع أحد أن يشك في إخلاص هؤلاء، ولا إيمانهم وحبهم للإسلام، وحرصهم على ديار المسلمين، ولكن الإخلاص شيء، والحنكة السياسية شيء آخر، وحب البلاد شيء، ومعرفة نوايا الخصم وتطلعاته شيء مختلف، يجب أن يحسب له حسابه. إذ كان يجب أن يكون هناك ضوابط ونظرات مستقبلية، وعوامل داخلية وخارجية تضمن أي اتفاق ولا يكفي أبداً الاعتماد على الوعود أو على التعهدات الأخلاقية، فلا مصداقية لقوى، أو عدو، أو متطلع، ولهذا كان يجب أن تكون هناك عوامل أخرى تضمن هذه الوعود البريطانية، منها:

---

(١) انظر في ذلك: التيار الإسلامي في فلسطين، ص ٧٦. وعجاج نويهض في: رجال من فلسطين، ص ١١٤.

١ ـ أن تكون هناك قوىٰ توازي هـٰذه القوىٰ البريطانية؛ لتحترمها وتقدرها وتعمل حسابها إن نكثت عن عهودها مع العرب، كأن تؤلف فرق عربية مستعدة للدفاع عن الاستقلال ومن يعارضه أو يقف في طريقه سواء كانت بريطانيا أو غيرها.

٢ ـ شعب مستعد ومؤهل للدفاع عن حقوقه، ومجهز لكل الاحتمالات إذا لم تلبَّ حقوقه.

٣ ـ تنظيم قوىٰ وقيادة رائدة تستطيع أن تكافح وتتحمل تبعات هـٰذا الكفاح للنهاية.

٤ ـ مصلحة لبريطانيا في إقامة خلافة المسلمين، وأن يكون علىٰ رأسها خليفة يؤيدها ويعمل علىٰ تحقيق مصالحها.

والواقع أنَّه لم يوجد أي من هـٰذه العوامل، فَمَنْ يَرُدّ الذئب عن الفريسة؟ ومَنْ يحمي الشاة منه، أو يحجر بين الأسد وبين صيد ثمين يتمتع بالجمود والاستسلام؟!

● **نتائج هذه الخديعة:**

كانت نتيجة هـٰذه الخديعة مروّعة، تمثَّلت في كوراث عدَّة، منها:

١ ـ تحطيم دولة الخلافة وتفرّق المسلمين قطعاً وفرقاً.

٢ ـ احتلال البلاد وتقسيمها وفقدانها لحريتها وكرامتها.

٣ ـ تحقيق الحلم الصليبي، وانتهاء الحملات الصليبية بهـٰذا الاحتلال.

٤ ـ زرع الكارثة وتحقيق الحلم اليهودي في إقامة وطن قومي لهم علىٰ أنقاض دولة الإسلام وتشريد الملايين من أهل البلاد الأصليين، وإحلال اليهود بدلاً عنهم.

● **ظهور الغدر إلى العيان:**

ظل العرب علىٰ عمايتهم لا يعلمون باتفاق «سايكس بيكو» إلىٰ سنة ١٩١٧م؛ أي بعد سنة من عقده ونشره، حيث نشرته صحيفة «الازفستيا، والبرافدا» السوفياتيتين، وذلك في عدديهما الصادرين في ٢٣ نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٩١٧م، وقد حاول العثمانيون فضح حقيقة التوجهات الاستعمارية لبريطانيا وفرنسا ونصح العرب، ولكن العرب لم يصدقوا هـٰذه النصائح وظنُّوا أنها مكيدة، ولم يكلفوا أنفسهم مؤنة البحث لتبين الحقائق، حتىٰ توالت الحقائق وانكشف الغطاء

عن مفردات المكيدة والخديعة، فأعلن «وعد بلفور» الشهير لليهود عن إنشاء وطن قومي لهم في فلسطين في نفس السنة ١١/ ١٢/ ١٩١٧م، ودخلت الجيوش البريطانية بقيادة الجنرال «اللنبي» القدس في ١١/ ١٢/ ١٩١٧م بعد ستة أسابيع من وعد بلفور، وأعلن الانتداب البريطاني على فلسطين، وعينت بريطانيا أوَّل حاكم على فلسطين رجلاً يهودياً، اسمه «هربرت صمويل» بناء على ترشيح اليهود له وتأييد حاييم وايزمان؛ لأنَّ هذا الحاكم رسم سياسته كلها على تمكين الصهيونية من فلسطين، وتجريد الفلسطينيين من كل وسيلة للدفاع عن النفس، وسرع الهجرة اليهودية وملك اليهود الأرض الكافية ليؤسسوا عليها الدولة، وأنشؤوا القواعد العسكرية والمنظمات المحارية الكافية لإعلان الدولة الإسرائيلية في نهاية فترة الانتداب. وبدأ هربرت صمويل اليهودي الحاكم البريطاني على فلسطين التنفيذ في إنشاء مستعمرات لليهود والاستيلاء على الأراضي بالقوة من الفلسطينيين بناء على مخطط مدروس محكم، ينتهي بأرض فلسطين إلى أن تكون ملكاً لليهود. وفي فبراير سنة ١٩١٩م بدأ العرب يفيقون على الكارثة، وبدأ الصراع المسلح بين العرب الفلسطينيين واليهود والإنجليز على أرض فلسطين، وهو صراع كان محكوماً فيه على العرب بالفشل منذ البداية، فقد اعتمد العرب على حقهم في الأرض، والحق وحده لا يكفي أمام القوة، واعتمدوا على البلدان العربية، وكان كل بلد عربي زمامه بيد غيره من القوى الاستعمارية، فضلاً عن أنه مشغول بهمومه ومصيره، هذا إلى جانب قلة الكفاية والجهل بشئون السياسة الدولية، بينما وقفت الإدارة الإنجليزية في فلسطين إلى جانب اليهود وسلَّمتهم الشرطة والجمارك، ويسَّرت لهم الحصول على أرض واسعة وتحويلها إلى مستعمرات زراعية ومراكز عسكرية، وأفاق الفلسطينيون على غدر بريطانيا وحقد اليهود، وفقدان دولة الخلافة، وعلى جهلهم وعدم استعدادهم، وعلى تشتت آرائهم، وعلى تشرذم عربي أمره ليس بيده، وعلى وجود قوة يهودية مسلحة بأحدث الأسلحة ومدربة أجود تدريب ومعها المال والسلاح والتأييد اليهودي والعالمي.

* * *

المبحث الرابع
مراحل إسقاط الخلافة
وفصلها عن دورها الإسلامي

وقد مرَّ ذلك بأربع مراحل:

١ ـ الفتح الإسلامي: في الأندلس، والقسطنطينية، ودخول المسلمين إيطاليا، وجنوب فرنسا، فبدأ التخطيط لوقف الزحف الإسلامي إلى أوروبا.

٢ ـ فترة انحسار الفتح الإسلامي، وضعف دولة الخلافة: فبدأ التفكير في تقطيع دولة الخلافة وتقسيمها بين انجلترا وفرنسا وإيطاليا وإثارة النعرة القومية والانحلال في كل قطر على نحو ما سبق بيانه.

٣ ـ فترة الإجهاز على دولة الخلافة.

٤ ـ خطط اليهود للقضاء على الخلافة، وإقامة دولة في فلسطين.

• في عام ١٩٠١م كتب العلامة الروسي «سرجي نيلوس»: «إنَّ الأفعى اليهودية في طريقها إلى فلسطين، لا بد أن تمر بالأستانة».

• تقدَّم زعيم يهود الدونمة «قره صو» في سالونيك وهو ماسوني من حزب الاتحاد والترقي إلى السلطان عبد الحميد مندوباً عن اليهود ورجاه أن يسهل لليهود الهجرة إلى فلسطين مقابل ٥ ملايين جنيه خاصة للسلطان، و٥٠ مليون جنيه أخرى للدولة، كما ذكر ذلك في ص ٦٤، فغضب السلطان عبد الحميد وبصق في وجهه وطرده من مجلسه وقال له «قره صو»: «ستعلم كم يكلفك هذا الرفض»؟!

بعد فترة قصيرة، قام أعضاء حزب الاتحاد والترقي عام ١٩٠٨م بثورة تم فيها إقصاء الخليفة عن الحكم وإعطاؤه سلطة روحية شكلية، وكان «قره صو» من الثلاثة الذين قدموا للسلطان عبد الحميد قرار العزل.

هجم اليونان على تركيا واحتلوا «أزمير»، وتوغلوا في البلاد التركية. وظهر الضابط «مصطفى كمال» وجمع فلول الجيوش التركية وتظاهر بالغيرة الإسلامية،

وحقق نصراً عظيماً على اليونان، ساعده فيه المستعلمون ليجعلوا منه بطلاً قومياً ليهدم الخلافة ويفصل تركيا عن الإسلام بعد ذلك، ومن يومها والشعب ينظر إليه كبطل تركي مسلم ولقَّبوه بـ «الغازي».

أمَّا عن شروط «كرزون» فيروي أحد أركان حرب «مصطفى كمال» ويُدْعَى «كمال بك»، أن هذه البنود كانت شروطاً لاستقلال تركيا فيقول: «إنَّ كرزون ـ وزير خارجية بريطانيا ـ وقف وقفة المتصلب وقال لعصمت ـ المندوب التركي في المفاوضات ـ إنَّنا لا نستطيع أن ندعكم مستقلين لأنَّكم تكونوا حينئذٍ نواة يتجمع حولها المسلمون مرة أخرى، فتعود المسألة الشرقية التي عانينا منها كثيراً»! وكان «عصمت إنونو» يعود للبحث والمشورة إلى تركيا ثم يرجع إلى لندن لاستئناف المفاوضات، حتى تم الاتفاق على هذه الشروط.

● **شروط مؤتمر لوزان:**

أ ـ إلغاء الخلافة الإسلامية، وطرد الخليفة من تركيا، ومصادرة أمواله.

ب ـ أن تتعهد تركيا بإخماد كل حركة إسلامية يقوم بها الإسلاميون أنصار الخلافة.

جـ ـ أن تقطع تركيا صلتها بالإسلام.

د ـ أن تختار لها دستوراً مدنياً بدلاً من دستورها المستمد من أحكام الإسلام.

فنفَّذَ «كمال أتاتورك» الشروط السابقة، فانسحبت الجيوش الغربية من تركيا، ولما وقف «كرزون» وزير خارجية انجلترا في مجلس العموم البريطاني يستعرض ما جرى مع تركيا، احتجَّ بعض النواب الإنجليز على كرزون وعلى سحب الجيوش من تركيا، فأجاب كرزون: لقد قضينا على تركيا التي لن تقوم لها قائمة بعد اليوم؛ لأنَّنا قضينا على قوّتها المتمثلة في أمرين: «الإسلام، والخلافة». فصفَّقَ النواب الإنجليز كلهم وسكتت المعارضة.

● **جهود كمال أتاتورك في هدم الإسلام؛ لإرضاء المستعمرين:**

قام كمال أتاتورك بالأفعال الآتية ـ إرضاءً للغرب، ولهدم الخلافة، وإبعاد البلاد عن الإسلام، وعن البلاد العربية والإسلامية:

١ ـ إلغاء الخلافة الإسلامية، وفصل تركيا عن باقي أجزاء الدولة العثمانية، فحطَّم الامبراطورية العظيمة.

٢ ـ أعلن العلمانية وفصل الدين عن الدولة، مبعداً الإسلام الذي يخشى منه الغرب.

٣ ـ اضطهد علماء الدين أبشع اضطهاد، وقتل منهم العشرات، وعلَّق جثثهم على أعواد الشجر.

٤ ـ أغلق كثيراً من المساجد، وحرَّم الأذان، والصلاة باللغة العربية، وأجبر الشعب على لبس الزي الأوروبي.

٥ ـ ألغى المحاكم الشرعية، وفرض القوانين المدنية السويسرية، وفرض العطلة الأسبوعية يوم الأحد.

٦ ـ ألغى قوانين الميراث والزواج والأحوال الشخصية، وحرَّم تعدد الزوجات والطلاق، وسوَّى بين الذكر والأنثى في الميراث.

٧ ـ شجَّع المرأة التركية والفتاة والشباب على الدعارة والفجور، وأباح المنكرات وضرب بنفسه المثل.

٨ ـ قضى على التعليم الديني في الجامعات والمدارس، وفرض الاختلاط، وبدَّل الحروف العربية، ومنع تعليم القرآن.

٩ ـ ألغى وزارة الأوقاف، ومنع الصلاة في جامع آيا صوفيا، وحوَّله إلى متحف.

١٠ ـ ألغى استعمال التقويم الهجري، وسعى إلى حذف الكلمات العربية من اللغة التركية.

١١ ـ محاولة فرض التقاليد الأوروبية، وربط تركيا بالغرب ونزعها من هويتها.

* * *

الفصل الثالث
تقسيم فلسطين وتحقيق حلم اليهود
وخطوات الصراع العربي الإسرائيلي

المبحث الأول
تقسيم فلسطين والاستعداد للحرب

استكمالاً لهذا المخطط القذر، تدخلت بريطانيا؛ بحجة أن العرب واليهود لا يستطيعون التعايش وأنشأت لجان للبحث في تقسيم أرض فلسطين بين العرب واليهود، وتدخلت عصبة الأمم ووضعت مشروعاً للتقسيم في صالح اليهود. ورفض الفلسطينيون ذلك معتمدين على أن الأرض لهم ولا سبيل إلى التنازل عنها، ولكن العرب لم يُتبعوا هذا باستعداد يضمن حقهم، وظل اليهود يستولون على المزيد إلى أن انتهى الانتداب البريطاني في ١٥ مايو (أيار) ١٩٤٨م وأعلنت بريطانيا انسحابها، فأعلن اليهود دولة إسرائيل في منتصف الليل، واعترفت أمريكا وروسيا بها خلال الدقائق الأولى من إعلانها.

واشتدَّ الكفاح المسلح في فلسطين من قبل المتطوعين الإسلاميين من الإخوان المسلمين وغيرهم من المجاهدين، وكادوا أن يحدثوا أثراً مهماً على الساحة الفلسطينية ويقلبوا الموازين لصالح الأمة العربية والإسلامية، لو وجدوا العون الكافي، ولكن الاستعمار وأعوان الصهيونية أرادوا وأد هذا العمل الجهادي العظيم، فأوعزوا إلى الحكومات أن تدخل بجيوشها فلسطين لحرب اليهود؛ لأنَّ الاستعمار ممكن أن يتحكم في مصير تلك الجيوش بواسطة الحكومات ولكنه لا يمكن أن يتحكم في مصير هؤلاء المجاهدين الذين ليست لهم مرجعية حكومية؛ لأنَّ مرجعيتهم إسلامية وليست حكومية، وصادف هذا الاقتراح موافقة لدى الحكومات ليخرجها من الحرج التي وقعت فيه باحتلال فلسطين من اليهود وهي لم

تبد ساكناً أو تفعل شيئاً غير الاحتجاج على استحياء.

ودخلت الجيوش العربية، وما هي إلَّا أيام حتى قبضت تلك الجيوش على المجاهدين الإسلاميين، ورحلتهم خارج فلسطين، بل وأودعت الكثيرين السجون والمعتقلات، وما هي إلَّا أشهر حتى أعلنت الهدنة بين تلك الجيوش وبين اليهود، تلك الهدنة التي التزم بها العرب واحترمتها الجيوش العربية ولم تحترمها للحظة واحدة العصابات الصهيونية، وصارت تغير على الجيوش العربية، وتأخذ الأرض من تحت أقدامهم إلى أن طردت الجيوش شر طردة من فلسطين. وتمكَّن منها اليهود، ولم تستح تلك الجيوش التي تجاوزت السبع أن ترجع صاغرة، ولم نر بعد ذلك بحثاً لأسباب تلك الهزائم، أو نسمع أن حكومة عربية سقطت؛ لأنَّها قد هزم لها جيش، ولكن الوثائق قد أظهرت الفضائح التي لا تنسى على مدى التاريخ.

● **الجيوش العربية واستعداداتها:**

كانت أحوال الجيوش العربية، من حيث العدد والسلاح والمعدات، قاصرة. وعليه، لم تكن مهلة لا لخوض حرب حقيقية، إذ كان الجيش المصري الزاحف بقيادة محمد نجيب وغيره، غير مؤهل للقتال.

أمَّا الجيش الأردني: فيقول عنه الملك عبد الله في مذكراته: «لم يكن عند الجيش الأردني عند وقوع الهدنة الأولى، أعتدة ولا أسلحة تكفي لحرب يومين اثنين، والجيش السوري لم يكن بأسعد حال من سابقه، والجيش العراقي يذكر قائده حسن مصطفى في معرض الحديث عنه: «كان مستوى التسليح والتدريب والتجهيز والقيادة في أكثر الجيوش العربية لم يكن يؤهلها لخوض غمار حرب حقيقية».

كما أنَّ هذه القوات، رغم أنها غير مستعدة، فهي قليلة العدد، إذ قدّر «جلوب باشا» هذه القوات بحوالي (٢٠) ألفاً عند إعلان التقسيم: الجيش المصري (١٠٠٠٠) عشرة آلاف، والجيش العراقي (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف جندي، والجيش الأردني (٤٥٠٠) أربعة آلاف وخمسمائة جندي، والجيش السوري (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف جندي، والجيش اللبناني (١٠٠٠) ألف جندي.

أمَّا الجيش الإسرائيلي، فكان تعداده كالتالي:

(٢٠٠٠٠) عشرون ألف جندي دربوا تدريباً كاملاً وزوّدوا بالسلاح الكامل.

(١٠٠٠٠) عشرة آلاف جندي دربوا تدريباً كاملاً ولم يزودوا بالسلاح الكامل.

(٣٠٠٠٠) ثلاثون ألفاً دربوا تدريباً جزئياً ولم يزودوا بالسلاح.

(٦٠٠٠٠) ستون ألفاً ينتمون إلى الهاجاناة مسلحين.

(٦٠٠٠٠) ستون ألفاً ينتمون إلى منظمة الأرغون مسلحين.

(١٠٠٠) ألف جندي ينتمون إلى منظمة ستيرن بعضهم مسلحاً.

رغم الاستعداد من جانب اليهود، وعدم الاستعداد من جانب العرب، إلا أن بعض القواد في الجيوش العربية كان لهم أثر فعال في الحرب اليهودية، إلا أن السياسة قد هزمتهم شرّ هزيمة!

* * *

المبحث الثاني
الحروب العربية اليهودية ونتائجها

دخلت الجيوش العربية إلى فلسطين، وأصبحت الجيوش في حالة حرب حقيقية رغم عدم استعدادها الاستعداد الكافي، وحاربت تلك الجيوش بما فيها من قواد يأبون الهزيمة أمام العصابات اليهودية، وساعدهم في ذلك المجاهدون من أهل فلسطين ومن خارجها قبل القضاء عليهم، وأصاب اليهود في بادئ الأمر حرج كبير، تدخلت القوى الخارجية لفرض الهدنة الأولى بعد الأشهر الأربعة من حرب ١٩٤٨م، لما كان زمام المبادرة بيد العرب، وكادت الدائرة تدور على اليهود، فاستغاثوا بطلب الهدنة حتى ينقذوا ٣٠٠ مستعمرة كانت على وشك السقوط، وينقذوا القدس المحاصرة والتي كان اليهود فيها على وشك الاستسلام.

وقد نفذت الهدنة الأولى وسط استغراب المخلصين من العرب، وكانت فرصة لليهود حتى يلتقطوا أنفاسهم وسط معركة دفاعية يائسة.

وفي ٣ أبريل (نيسان) من عام ١٩٤٨م بدأت القوات الإسرائيلية - بعد أن استردت أنفاسها وزودت جيشها بأحدث الأسلحة - عمليات الهجوم ضد المواقع العربية - واعتمدت على المفاجأة والسريَّة والعنف والإرهاب، ولا سيما ضد الأطفال والنساء والشيوخ في دير ياسين، وغيرها؛ مما ألقى الرعب في صفوف السكان، وظل اليهود يواصلون الحرب إلى أن استطاعت قوات المجاهدين بمعاونة الجيوش العربية إسقاط ٤ مستعمرات يهودية وكادت الدائرة تدور مرة أخرى على اليهود، فطلبوا هدنة ثانية، فأُجِيبُوا إليها رغم مخالفة المخلصين وأهل الخبرة الحربية ولكن دون جدوى، واستمرت الهدنة إلى أن استعدت إسرائيل وعاودت الكرة، وهكذا، إلى أن كانت الهدنة الأخيرة التي قررت نهاية المعرفة العسكرية، وبداية الاتهامات بين العرب، وكانت مصر أول من وقع اتفاق الهدنة يوم ٢٤ فبراير (شباط) ١٩٤٩م، ثم تلاها لبنان، ثم الأردن، ثم سوريا، وانسحب العراق، وانسحبت

الجيوش العربية من فلسطين تاركين إياها لمصيرها المحتوم.

● **حرب عام ١٩٥٦م:**

ثارت ثائرة الغرب ضد مصر وضد تأميم قناة السويس من جانب واحد وضد خنق المصالح الغربية كما ادَّعت في ذلك الوقت، فهاجمت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل مصر، واستولت على سيناء وعلى قناة السويس وعلى مدن القناة، ولكن المصالح الغربية تعارضت بعضها مع البعض، وخاصة المصالح الأمريكية، ثم المصالح السوفييتية، فطالب الروس وهددوا بانسحاب القوات للدول الثلاث من مصر وطالب الأمريكان بالانسحاب كذلك، فانسحبت القوات الأجنبية، ولم تحقق إسرائيل من أهدافها إلَّا القليل.

● **حرب عام ١٩٦٧م:**

لم تحقق إسرائيل من أهدافها الكثير في حرب ١٩٥٦م، فاستعدت لحرب لاحقة تستطيع أن تحقق منها ما ترجوه، وتمنع عنها بعض الأخطار التي لاحت لها في الأفق، منها:

١ ـ حب التوسع الذي على أساسه يتم توسيع الدولة بالمهاجرين، ولا بد من امتلاك أرض جديدة.

٢ ـ تحويل مياه نهر الأردن ومشروع بحيرة الحولة، والوصول إلى مرتفعات الجولان، والاستفادة منها.

٣ ـ ضرب المقاومة الفلسطينية التي ظهرت من جديد.

٤ ـ ضرب سوريا للتوتر الأمني الذي ظهر بينها وبين إسرائيل وتلقينها درساً.

٥ ـ إرغام العرب على عقد معاهدات صلح دائمة وإنهاء حالة الحرب والتمتع بالسيادة على الأمة العربية.

لهذا، بدأت إسرائيل تستعد، بينما كان العالم العربي يعيش حالة من الفوضى والتمزق السياسي وضعف الاستعداد العسكري، وكانت الأنظمة مشغولة بالمؤامرات والانقلابات والمزايدات وطرح الأفكار الخادعة ورفع الشعارات المضللة؛

كإلقاء إسرائيل في البحر وتحرير فلسطين، وانتظار صلاح الدين الجديد الذي سيلقن اليهود والمستعمرين الدرس الذي لا يُنْسَى. وصعَّد العرب من لهجتهم الحربية واتبعوها بإجراءات استعراضية ظناً منهم أنهم يخيفون إسرائيل والغرب، وبينما كانت الجماهير تنتظر النصر الذي وُعِدَت به من قبل حكامها بفارغ الصبر، إذ بها تفاجأ بهجوم إسرائيلي خاطف على المطارات المصرية وتدمر القوة الجوية المصرية، وكذلك بهجوم جوي على سوريا وتدمر المطارات والطائرات السورية، وألحقت ذلك بالهجوم البري الذي كان كارثة على العرب بتدمير جيوشهم واحتلال أرضهم، سيناء والجولان، واحتلت الجبهة الأردنية، وصعقت الجموع العربية المخدوعة بالشعارات الكاذبة زمناً بعدما ظهرت لها الحقائق ظهور الشمس في وضح النهار، وكانت من نتائج الحرب ما يلي:

١ ـ احتلال إسرائيل لمزيد من الأراضي العربية، فقد احتلت منطقة ساحل غزة، والضفة الغربية، ومرتفعات الجولان، وشبه جزيرة سيناء.

٢ ـ تهجير عدد كبير من السوريين والفلسطينيين من أراضيهم وإخلائها لليهود.

٣ ـ سيطرة إسرائيل على مصادر مياه نهر الأردن.

٤ ـ تأمين إسرائيل لحدودها ومناطقها السكنية.

٥ ـ فتح مضايق تيران أمام الملاحة الإسرائيلية.

٦ ـ تدمير القوة العسكرية العربية.

٧ ـ كشف الحرب لضعف القيادات العربية وتمزقها ومتاجرتها بالشعارات لخداع الشعوب.

● **حرب ١٩٧٣م:**

اتخذت الدول العربية بعد حرب ١٩٦٧م قراراً بإعادة بناء القوات المسلحة، ليس بغرض تحرير فلسطين هذه المرَّة، ولكن بغرض إزالة آثار العدوان، وبدأت تستعد لمعركة قادمة، وكان هدف الحرب ـ كما وضَّحه السادات ـ يتلخَّص في أربع نقاط:

١ ـ إرغام إسرائيل على الحرب على جبهتين.
٢ ـ إلحاق خسائر بها لم تتكبد مثلها من قبل.
٣ ـ إلزامها بالتعبئة العسكرية أطول مدة ممكنة.
٤ ـ إيقاظ التضامن العربي واستعمال العرب أسلحتهم في المعركة، كسلاح النفط.

وفعلاً استعدت إسرائيل هي الأخرى للحرب، وقامت الحرب بمفاجأة من القوات المصرية، وقاتل الجندي العربي واستطاع أن يحقق بعض المكاسب. وكان من نتائج الحرب، ما يلي:

١ ـ لم يستطع العرب تحقيق هدف الحرب، وهو إزالة آثار عدوان عام ١٩٦٧م.
٢ ـ أظهرت الحرب أنَّ هناك جندياً عربياً مختلفاً عن ذي قبل، وحارب بقوَّة وشجاعة.
٣ ـ تحطيم مقولة الجندي الإسرائيلي الذي لا يُهزم، حيث هُزم الجندي الإسرائيلي في بعض المواقع وحُطِّم خط بارليف الذي كانت إسرائيل تقول عنه: إنَّه لا يمكن تجاوزه.
٤ ـ استخدام سلاح النفط كسلاح، مما أظهر قوة العرب في مواجهة القوة المساندة لإسرائيل.
٥ ـ رضوخ إسرائيل للجلوس أمام المفاوضات وتنازلها عن غطرستها.

● **معارك الجنوب اللبناني:**

منعت الأنظمة العربية أي مقاومة تنطلق من أراضيها؛ خوفاً من ذراع إسرائيل الطويلة، وخوفاً على كثير من الكراسي المهتزة، وإيثار للسلامة والتنعم بعيداً عن المنغصات، وإرضاءً لمن وراء إسرائيل، ولأولياء النعمة الغربيين.

ولكن المقاومة الفلسطينية لم تجد ـ والحقيقة تُقَال ـ إلَّا لبنان لتنطلق منه ضد إسرائيل، فقامت المقاومة بعمليات عسكرية ضدها، وردَّت إسرائيل بعمليات تسميها وقائية ضد الفدائيين الفلسطينيين واغتيال قادة فلسطينيين، وقد وصلت أعمال إسرائيل إلى بيروت نفسها.

● **معركة عام ١٩٧٨م:**

قامت إسرائيل بالهجوم على الساحل الجنوبي للبنان براً وبحراً وجواً، وذلك في ١٥ مارس (أذار) ١٩٧٨م، وكان الهدف إبعاد المقاتلين الفلسطينيين عن حدودها الشمالية، وخلق منطقة آمنة في الجنوب اللبناني تكون منطقة معارك، واستمرت المعركة ستة أيام، احتلت بعدها الشريط الحدودي، ونصبت عليه شخصاً لبنانياً اسمه (سعد حداد)، الذي أعلن عن قيام دولة لبنان الحرّ.

اجتمع مجلس الأمن واتخذ القرار (٤٢٥) الذي دعا إسرائيل إلى سحب قواتها من المنطقة، لكن إسرائيل لم تنفذ هذا القرار.

● **معركة عام ١٩٨٢م:**

لم تؤثر معركة عام ١٩٧٨م على المقاومة الفلسطينية بصورة جوهرية، بل دفعها إلى البحث عن مزيد من الأسلحة المتطورة، كما عملت على تكوين قوات فلسطينية «جيش فلسطيني» فاعلة وتوافر لديها عدد من الدبابات والمدافع والأسلحة الثقيلة، وانضم إليها في الميدان مجموعات من المقاومة اللبنانية، فأصبح الوضع خطراً بالنسبة لإسرائيل.

وإسرائيل لا تحتمل ذلك التهديد على حدودها، خاصة بعد أن تعاظم أمره، فبدأت إسرائيل هجومها ٦ يونيو (حزيران) ١٩٨٢م، وتقدم جيشها في الجنوب وواجه جيشها مقاومة عنيفة من قبل المقاتلين الفلسطينيين، ولكن المواقع الفلسطينية تهاوت بعد ذلك، فاصطدم الجيش الإسرائيلي بالجيش السوري الموجود في لبنان واستطاعت إسرائيل تحطيم القوة العسكرية السورية برياً وجوياً، وكبدت سوريا خسائر جسيمة وظهر مدى التطور التقني للعسكرية الإسرائيلية والتخلف للعسكرية السورية، وزحفت إسرائيل نحو بيروت؛ للإجهاز على منظمة التحرير الفلسطينية والبنية التحتية لها، لكن المقاتلين الفلسطينيين صمدوا ودافعوا بقوة أحرجت الإسرائيليين رغم مساعدة قوات حزب الكتائب اللبناني لهم، وقتل الفلسطينيون كثيراً من الإسرائيليين، ولم يستطع الإسرائيليون التقدم في بيروت رغم خسائرهم

الفادحة وقنابلهم المتطورة، فاستعانوا بالدبلوماسية الأمريكية؛ لتخليصهم من ورطتهم في بيروت، وكان من نتائج هٰذه المعركة، ما يلي:

١ ـ حققت إسرائيل هدفها بضرب البنية التحتية لمنظمة التحرير الفلسطينية.

٢ ـ نجحت إسرائيل في تحويل منظمة التحرير إلىٰ منظمة سياسية.

٣ ـ دخول منظمة التحرير عصر الأمركة.

٤ ـ غرق إسرائيل في مستنقع عسكري في لبنان وتعرضها لمقاومة عسكرية من نوع خاص.

٥ ـ تنفيذ مجزرة صبرا وشاتيلا ضد الفلسطينيين، ولقد حذرت القيادة الفلسطينية من خطر الخروج من بيروت علىٰ المدنيين الفلسطينيين ولكن القيادة لم تستمع للتحذيرات وصدقت الوعود الأجنبية بحماية الفلسطينيين، ولكن قوات الكتائب قد أخذت الضوء الأخضر للقيام بهٰذه المجزرة المروِّعَة.

٦ ـ حدوث شرخ كبير داخل الشعب الفلسطيني وانشقاق حركة فتح نتيجة لاختلاف المواقف حول العلاقات مع الدول وحول تغيرات القيادة... إلخ.

● **معارك حزب الله والجماعة الإسلامية:**

ظهر علىٰ أرض لبنان مجموعة جديدة تسمَّىٰ «حزب الله» تنظيم شيعي لبناني، وهو حزب يؤمن بإقامة دولة إسلامية وطرد النفوذ الأجنبي الغربي وتحرير أرض لبنان من الصهاينة، ويساند هٰذا الحزب إيران وسوريا.

وتبعاً لموقفه العقائدي وإيمانه بمبدأ الجهاد، أخذ «حزب الله» يشن هجمات مستمرة ومتكررة علىٰ إسرائيل، وعلىٰ جيش لبنان الجنوبي، وقد ألحق خسائر كبيرة بالإسرائيليين وحملهم تكاليف باهظة، وقصف الحزب مواقع إسرائيل ومستعمراتها مرات عديدة؛ مما سبَّب ضغطاً علىٰ الحكام الإسرائيليين وإقلاقاً للعسكرية الإسرائيلية، فقامت إسرائيل بالعديد من الغارات والاجتياحات للجنوب اللبناني، ولكن دون جدوىٰ، ولم يؤثر ذلك في فاعلية الحزب ولا في مقدرته العسكرية، ولا فيما يقوم به من قصف للمستوطنات اليهودية، وضاقت إسرائيل ذرعاً بحزب الله،

وقامت بهجوم على جنوب لبنان بالطائرات والمدافع البرية والبحرية، ولكن دون إدخال مشاة أو التقدم على الأرض، بسبب تخوفها من المقاومة والخسائر التي يمكن أن تحصل للجيش الإسرائيلي؛ لأنَّ الحزب قوي ويستعد بشكل جيد ويتقن حرب العصابات والكرِّ والفرّ، ولهذا وجهت إسرائيل ضرباتها الحانقة على الآمنين من الشعب اللبناني بالطائرات، وكان آخرها قصف قرية «قانا»، وقتل المدنيين الذين التجؤوا إلى معسكرات الأمم المتحدة، وأسقطت القنابل على رؤوسهم فقتلت أكثر من مائة شخص، وجرحت المئات، وأثارت هذه العملية الرأي العام العالمي، ودلَّت هذه على فشل العسكرية الإسرائيلية وإفلاسها وانعدام الأخلاقيات عندها، وأسفرت التحركات السياسية عن وقف إطلاق النار في ٢٧ أبريل (نيسان) ١٩٩٦م، وذلك بناء على اتفاق مكتوب يلزم الطرفين بعدم إطلاق النار على المدنيين.

● معركة ليلة القدر:

أرادت إسرائيل في رمضان، وفي ليلة القدر بالتحديد، فجر ٢٧/ ٩/ ١٤١٧هـ الموافق ٥/ ٢/ ١٩٩٧م الاعتداء على جنوب لبنان بطائرتين تحملان كوماندوز لمباغتة حزب الله وقتل قادته وما تستطيع من عناصره والتخريب في لبنان، وقبل تجاوزها حدود إسرائيل إلى لبنان، اصطدمت الطائرتان وقُتِلَ جميع من فيهما آية من آيات الله في ليلة مباركة وأورث هذا فجيعة في إسرائيل. وفرحة عند المؤمنين.

● المقاومة الإسلامية في جنوب لبنان:

بدأت المقاومة الإسلامية بحزب الله في جنوب لبنان، واستطاع أن يثبت جدارته حربياً وسياسياً على أرض الواقع، ومثَّل فاجعة حقيقية لإسرائيل، وكان بحق مثالاً يحتذى في العصر الحديث، وقد اشتركت الجماعة الإسلامية في القتال.

* * *

اشتراك الجماعة الإسلامية
«الإخوان المسلمون» في حرب الجنوب اللبناني

لم تقف الجماعة الإسلامية في لبنان مكتوفة الأيدي في تلك الحرب، فاشتركت مع حزب الله في القتال ضد اليهود، وخاصة أن تاريخ جماعة الإخوان المسلمين في حرب اليهود معروف ومشهود له، وكان لاشتراكها مع حزب الله في القتال دور فعَّال.

وقد يقول قائل: ولِمَ لم تنفرد هي بذلك؟

فنقول: لأسباب كثيرة، منها:

١ ـ أن الهدف واحد، وتجميع الجهود واجب، والتعاون مطلوب، والفرقة قد تؤدي إلى سياسات مختلفة يستفيد منها العدو.

٢ ـ لأنَّ حزب الله تسنده دول، وليس للجماعة دول تسندها، بل تعاديها لأسباب معروفة.

٣ ـ لأنَّ الجماعة لو ظهرت بمفردها، فلربما تسبب ذلك في منع جهادها وإفشال عملها، وهٰذا شيء مؤسف ولكنه الحقيقة.

٤ ـ لأنَّ المجاهد في سبيل الله حسبه أن الله يعلم جهاده وغايته نصرة الإسلام والمسلمين، ودحر أعداء الله. وهٰذا شيء يتحقق أكثر بالاتحاد والإخفاء.

لا نكون مبالغين إذا قُلْنا: إنَّ منطقة الشرق الأوسط قد مرضت وشلّت ولزمت الفراش ولم يعد لها حراك، وهٰذا جعل إسرائيل تفعل ما تريد بالمنطقة، ولكنه وفي وسط هٰذا الظلام برزت المقاومة الفلسطينية «حماس» في فلسطين، والمقاومة اللبنانية «حزب الله» في لبنان، وحماس والانتفاضة المباركة في داخل فلسطين هما الهم الدائم الذي ينغص على العدو الإسرائيلي حياته، فبينما يجلس قادة الدول العربية ومسؤولو الأنظمة التي تحيط بإسرائيل مع العدو الإسرائيلي في مدريد وواشنطن للتفاهم على مزيد من التنازلات لصالح العدو، فإنَّ المقاومة الإسلامية

تتحدَّىٰ الاحتلال وتقض مضاجعه.

وما الهجمات شبه اليومية التي يشنها الطيران الإسرائيلي أو ينفذها عملاء العدو في الجيب المحتل في جنوب لبنان، إلَّا محاولة يائسة لإيقاف المد الجهادي من أن يعم المنطقة ويقضي علىٰ أحلام اليهود بالأمن والاستقرار والتمدد.

ويتوقع المراقبون أن الجهات القويَّة النافذة في لبنان إذا كانت تستفيد في الوقت الحاضر من المقاومة الإسلامية كورقة ضغط بيدها للحصول علىٰ مزيد من المكتسبات علىٰ طاولة المفاوضات، فإنَّ هٰذه القوىٰ سرعان ما ستنقلب علىٰ المقاومة الإسلامية؛ لتعيدها مجردة من القوة من أجل الانسجام في المفاوضات!!

وهٰذا لم يتحقق في لبنان، ولكنه تحقق في فلسطين بفعل عرفات.

إسرائيل من ناحيتها تعلن علىٰ لسان مفاوضيها: أن لا أطماع لها في جنوب لبنان، ولا يهمها سوىٰ أمن مستعمراتها، ولكن واقعها يكذب ذلك؛ لسياستها التوسعية، فهٰذه إذن ليست حقيقة! ولنعد إلىٰ آراء قادة إسرائيل وأفعالهم، فماذا ترىٰ؟

بعث بن غوريون رسالة إلىٰ شاريت قال فيها: إنَّ «لبنان أضعف حلقة في الجامعة العربية»، وإن «خلق دولة مسيحية هناك أمر طبيعي؛ لأنَّ لهم (المسيحيين) جذوراً تاريخية في (لبنان). وفي الظروف الطبيعية يعتبر خلق دولة كهٰذه من المستحيلات (...). لكن في لحظات البلبلة أو الثورة أو الحرب الأهلية، فالأوضاع تتغير وحتىٰ الضعاف يصبحون أبطالاً. إنَّ هدفنا لن يتحقق إلَّا بإعادة رسم حدود لبنان».

• **وفي السادس عشر من مايو (أيار) ١٩٥٤م:** وإثْرَ اجتماع لمسؤولين في وزارتي الخارجية والدفاع الإسرائيليتين، أبلغ شاريت أن رئيس أركان الجيش موشىٰ دايَّان أكد استئناف مشروع بن غوريون. وإن «كل ما يقتضيه الأمر العثور علىٰ ضابط حتىٰ لو كان برتبة ميجور «رائد» نستطيع أن نكسب تعاطفه أو نشتريه ونستثيره لإعلان نفسه منقذ الموارنة. ويمكن أن يدخل الجيش الإسرائيلي من ثمَّ لبنان ويحتل ما يلزم

من أراضٍ ويقيم نظاماً هناك يعتقد بدوره تحالفاً مع إسرائيل. كما تحتل إسرائيل الأراضي كلها جنوب «نهر الليطاني» ويسير كل شيء بعد ذلك نحو الأفضل». هذه المقاطع من «جورنال» موشى شاريت تكشف نوايا إسرائيل تجاه لبنان.

• **عام ١٩٧٥ ـ ١٩٧٧م:** أسهمت إسرائيل في خلق جيوب حدودية واعتمدت سياسة عرفت بسياسة الحدود الطيبة تعتمد على فتح معابر بين إسرائيل ولبنان.

• **عام ١٩٧٨م:** قام الإسرائيليون بغزو جنوب لبنان؛ بحجة تصفية العمل الفدائي، وأقامت منطقة بعرض ١٠ ـ ٦٥ كم مساحتها ٥٠٠ كم مربع أسلمتها إلى سعد حداد.

• **عام ١٩٨٢م:** غزت إسرائيل لبنان؛ للهيمنة عليه.

• **من بداية ١٩٨٣م:** وسَّع اليهود رقعة الأراضي التي يسيطر عليها جيش لبنان الجنوبي والتي تضم كل الأراضي الواقعة جنوب الليطاني.

• **عام ١٩٨٦م:** أعلن إيتان أن الجيش الإسرائيلي يجب أن يبقى وينتشر حتى حدود نهر الليطاني.

إذن، فإسرائيل قالت كلمتها ونفَّذت سياستها، ورسخت احتلالها، واشترت العملاء، وحرَّضت القوى الكبرى وأيَّدتها الدول العظمى في كل خطواتها، ولكن هل نفعها ذلك كله أمام ضربات المقاومة الإسلامية؟ أم اضطرت صاغرة وفي ذلَّة إلى التخلِّي عن سياستها وأحلامها وأطماعها، بل وعملائها واحتلالها لتفلت من جحيم المقاومة الإسلامية وليست العلمانية، هل للعلمانيين مقاومة؟ وقد تعلمت إسرائيل درساً كبيراً، فهل أعطتنا نحن درساً كذلك، في استرداد الحقوق؟ وهل حرَّكتنا نحو الحل الصحيح؟ نرجو ذلك!!

• **انتصار المقاومة اللبنانية على إسرائيل، ومغزى ذلك:**

بدون مفاوضة وبدون شروط، استطاعت المقاومة الإسلامية الباسلة، طرد إسرائيل من الجنوب اللبناني، وأراد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أن يرينا ذلّ إسرائيل ومن عاونها، ويسقط الغطرسة الصهيونية التي ادَّعت أنها أذلَّت العرب والمسلمين، وما

أذلت إلا سلطات خاوية لا تمثل شعوبها، وقد دحرتها ثلة من أبناء الإسلام.

نعم، فالإسلام ولود، والعقيدة معطاءة، والإيمان مخازن الرجال، ومن يرىٰ اليوم تلك الأفراح التي يعيشها لبنان، ويرىٰ حصون العدو تتهاوىٰ، ويرىٰ ميلشياته العميلة تسلم مواقعها وأسلحتها، وترمي بنفسها في المجهول، يقول: سلمت يد الأبطال جند الإسلام، وحصن العقيدة، ودرع الإيمان، ومن يرىٰ رأي العين دخول اللبنانيين القرىٰ المحررة، والبلاد المستردَّة من يد العدو، بعد سنين عدداً وأعوام طوال، يدرك أن الفلاح في الجهاد، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً، ومن يتطلع إلىٰ قرار القوىٰ الصهيونية المتغطرسة، واندحار الآلة العسكرية الجبارة وهلع الجنود وانهيار القادة، وفرار العدو، يعلم: أنَّ نصر الله قريب إن نصرناه، وفتحه المبين قادم إن صدقنا معه، ووعده الحق آت لا محالة إن شحذنا العزم، وحفظنا العهد، وأحسنَّا الاستعداد وأخلصنا في التوكُّل عليه.

لقد بدأ الجهاد في لبنان إسلامياً لحماً ودماً، بعد فتنة عمياء، ولكنه تعلَّم من هٰذه المحنة واستطاع أن يوحِّد شعبه مارونياً وإسلامياً حول أهداف بلده، ومصالح شعبه، واستطاع أن يفرز حكومة وطنية، أبت العمالة لشرق أو لغرب، وعزمت كيف تتعامل مع المخلصين وتنبذ الخائنين وتساند المجاهدين، فوضح لها الطريق، وظهرت أمامها الغاية، وأصرَّت علىٰ بلوغ أهدافها، حينئذٍ تقدمت كتيبة الإسلام الواعد للجهاد، بعقلٍ نابهٍ، وفكر ناصح، وقيادة واعية، وعمل مدروس، وخطة حكيمة، مقدرة للعقبات، مستعدة للتضحيات، في وقت اسْوَدَّ فيه الأفق وادْلَهَمَّ فيه الليل، وبرزت فيه قرون الشياطين، ولكنها أمسكت بخيوط الإصباح، وتعلقت بأهداب فجر الإسلام، فظهر أمامها النهار، وبزغت علىٰ أوطانها شمس الضحىٰ، وولَّت خفافيش الظلام، **وننظر إلى قائد الكفاح اللبناني المسلح هو يلقي الضوء على تلك المسيرة، فيقول:**

«لقد وصلنا إلىٰ المرحلة التي يشعر الناس فيها أنهم أمام فتنة طاغية عمياء، يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها المؤمن حتىٰ يلقىٰ ربه، يلتمس فيها علائم الحق وعلامات الطريق، والناس في حيرة من أمرهم إن هم قاموا أن يخوضوا

في فتنة، وإن هم قعدوا أن يتركوا الواجب ويحيدوا عن الصراط، نحن في مرحلة أشد ما نحتاج فيها هو اليقين والرؤية الصحيحة الصائبة، والمعرفة الشاملة حتىٰ لا نضيع أربعين سنة في صحراء التيه من جديد، ونكتفي في النهاية بالوقوف علىٰ الأطلال نغني للعزة والنصر، ونبكي ذلنا والهزيمة، ومع اليقين وبعده نحن في حاجة إلىٰ العزة والإرادة، والذي بدونه نصبح في مواقع التنظير لا في مواقع التغيير، ومع العزم والإرادة نحتاج إلىٰ روح التضحية والاستعداد والبذل والتعب وتحمّل المصائب والمآسي والآلام، لقد كانت شعوبنا دائماً كذلك، لقد قدَّمت شعوبنا الكثير من التضحيات وكانت خلال خمسين عاماً من الصراع العربي الإسرائيلي مثالاً للرجولة ولم تتعب أو تهن، وإنَّما تعبت القيادات والكراسي والمناصب، أمَّا الشعوب فقد أثبتت أنها حاضرة دائماً للتضحية بأبنائها وفلذات أكبادها، ومقومات معيشتها، وإن تعبت الشعوب يوماً فمن قياداتها وليست من تضحياتها ورسالتها، وهٰذا هو الشعب الفلسطيني المبارك المجيد، فبالرغم من كل مآسيه، نجده حاضراً بشبابه وشيوخه وأطفاله في شوارع فلسطين فاتحاً صدره للرصاص والنار، ثم قال: نحن جميعاً أمام تحديين كبيرين:

الأول: هو المشروع الصهيوني للهيمنة علىٰ المنطقة بكاملها من مختلف جهاتها الاقتصادية والسياسية والأمنية والثقافية... وبسلاح التسوية والتطبيع وما شاكل ذلك، تحقيقاً لفكرة إسرائيل الكبرىٰ.

الثاني: هو استمرار احتلال فلسطين ـ كل فلسطين ـ وليس قطاع غزة والضفة الغربية بخارجة عن ذلك.

وفي مواجهة التحدي الأول: أعتقد أن علينا جميعاً كإسلاميين وقوميين ووطنيين، أن نحدد معالم هٰذا المشروع الصهيوني، وأخطاره، وسُبُل مواجهته، ونعرّف أمتنا علىٰ ذلك، ونستنهضها في هٰذا الاتجاه، ولتتحول كل شخصياتنا وحركاتنا وأحزابنا في كل بلد عربي وإسلامي إلىٰ أُطُر متكاملة ومتعاونة في مواجهة هٰذا الخطر.

وأمَّا في مواجهة التحدي الثاني: فإنَّ قضية فلسطين هي قضية الأمة بأجمعها، وستبقى فلسطين عربية وإسلامية مادامت السموات والأرض، ونحن نعتقد أنَّ العمل الجهادي داخل فلسطين وبإمكانياته المتواضعة، وبروحه الاستشهادية العالية، قادرٌ على إلحاق الهزيمة بإسرائيل، وإخراجها من المنطقة، وإن القنابل البشرية الاستشهادية على طريقة حماس والجهاد، وأزيز الرصاص وطعن السكاكين حتى من العجزة والنساء والحجارة من الأولاد، قادرٌ - مع الزمن - أن يضع قطعان المستوطنين الغزاة أمام مصير واحد، وهو وجب العودة إلى الأوطان التي جاؤوا منها، صدّقوني: إنَّ إسرائيل من الداخل أوْهَى من بيت العنكبوت».

نعم، وليست إسرائيل وحدها، بل هي ومن ورائها كذلك، أين أمريكا؟ لماذا لم تستطع أن تدافع عن إسرائيل في جنوب لبنان؟ ولم تستطع تثبيت أقدامها على أراضيه، أو تضع حزب الله في قائمة الإرهابيين الذين تحاربهم وتحرِّض عليهم؟!

إنَّ إسرائيل، ومن وراءها، يعرفون قوَّة الإسلام وشدَّة جنده وعزائم رجاله، وليس بعيدة تلك الأعمال التي تجري الآن في بلادنا العربية والإسلامية من ضرب للإسلام لإخلاء الساحة وتوهين القوى وتجفيف الينابيع، فنرى من يسبّ القرآن ومن يحارب الإسلام، ومن يقضي على رجاله، ويعمّر بهم السجون والمعتقلات هنا وهناك، ومن يقتل ويصفي أبطال الجهاد في فلسطين على يدي السلطة الفلسطينية لا على يد اليهود والصهاينة.

إنَّ الشعوبَ الساكتة اليوم، لن تسكت غداً عن حقها وعن دينها وعن أرضها ومقدساتها، ولئن ربى الاستعمار له ذيولاً، فقد ربَّى الإسلام له رجالاً وأبطالاً، ولئن حرَّض الأعداء والعملاء والخلعاء، فقد حرَّك الإسلام المجاهدين والأحرار والشرفاء، وإن نصر الله لقريب، فلا نامت أعين الجبناء، ولا نامت أعين الجبناء.

* * *